الأنثى

جميل أبو صبيح

أَتَلَهّى بِماءِ الْقُرُنْفُلْ
أَتَلَهّى بِهـذا الْقَـوامِ الْجَـمِـيلِ وهذا
الْحَلَقْ
وَهْوَ يَرْهَجُ في أُذُنَيْنِ مِنَ الشَّمْعِ حتّى
يَنِزَّ دَمِي مِنْ خَلاياىَ مِثْلَ الْعَرَقْ
في ضُحى مِنْ دَمِ الْغَيْمِ وَالشَّفَتَيْنِ
كَظَبْيَيْنِ نَجْمَعُ شَمْلَ الْحَدائِقِ في
كَأْسِنا
وَنَلُمُّ شَتاتَ الْفَراشِ الذي يَتَساقَطُ
في النّارِ عِنْدَ اشْتِباكِ الأَصابِعِ،
ثُمَّ نَسيرُ إلى كَوْكَبٍ مِنْ أَلَقْ
حَيْثُ كانَتْ نَوافِذُ بَيْتِكِ مُشْرَعَةً
لِخُيولي، خُيولي الّتي انْسَكَبَتْ
مِنْ رَحيقِ النَّدى، وَهْيَ تُرْخِي
الْفَضاءَ لِطائِرِها الْمُنْطَلِقْ
أَتَلَهّى بِصَوْتٍ لَذيذٍ يَسيلُ على غابَةِ
الرُّوحِ
بِالسَّوْسَنِ الْمُتَفَتِّحِ في صَدْرِكِ
الْمُنْدَفِقْ
وَبِهذا الْصَّباحِ الْخَجولِ
وهذا الّذي يَأْسِرُ اللُّبَّ فيكِ
وَهذا النُّحولْ
أَتَلَهّى.. وَهَلْ لِلْمَريضِ بِهذا الْجَمالِ
الشَّهِيِّ
سِوى أَنْ يَموتَ على نَهْدِكِ الْمُنْدَلِقْ؟
في رِياحِ الْجُنُونِ اللّذيذِ أَكونُ وَقوراً
كَبَحْرٍ، وَقَدْ أَيْقَظَ الضَّوْءُ فِيَّ
مَصابيحَهُ
كَيْفَ لي أَنْ أَكونَ وَقُوراً أَنا اللَّهَبُ!
كُلُّ ما بَيْنَ أَرْضٍ وَبَيْنَ سَماءٍ طَعامٌ
لِناري، وَناري هِيَ الْمُطْلَقُ
الصَّعْبُ
أَتَلَهّى بِما أَشْتَهي،
وَلِيَ الآنَ أَنْ أَشْتَهي غابَةً لأُطَرِّزَها
بِالْجَرادِ الْمُضيءِ، وَأَنْ أَحْتَفي
بِاكْتِمالِ الأُنوثَهْ
مِثْلَما يَحْتَفي الذِّئْبُ بِالذِّئْبِ، وَالْماءُ
بَيْنَ أَصابِعِنا يَتَرَجْرَجُ
تَحْتَ الرِّدَاءْ
أَشْتَهي مِنْ رِياحِ الشِّتاءِ
عَواصِفَها
وَأُرِيدُ لَها
أَنْ تَهُبَّ على شَجَرِ الْقَلْبِ
أَنْ تُلْهِبَ النَّبْضَ وَالسَّوْسَنَ الْمُتَثائِبَ
تَحْتَ الْمَساءْ
وَأُرِيدُ لِغانِيَةِ الشَّمْعِ أَنْ تَرْتَدِي
مِعْطَفَ الْمَاءِ حينَ تَنامُ بِمُفْرَدِها
تَحْتَ جِلْدٍ مِنَ الْمَوْجِ، وَهْيَ تَبُثُّ
أَغارِيدَها
في مَهَبِّ الرِّياحْ
كانَ ذلِكَ والأَرْضُ تَبْحَثُ عن سَيِّدِ
الْبُرْتُقالِ
الْمُعَبَّإِ بِالدّينَميتِ، فَمَنْ
يَكْسِرُ الشَّمْسَ مِثْلَ الزُّجاجَةِ فَوْقَ
الْمِخَدَّةِ
هذا الْصَّباحِ الزُّجاجِيْ
يَسْحَبُ الأَرْضَ مِنْ شَعْرِها
ثُمَّ يُرْهِقُها بِالْمَعادِنْ
وَتَكونُ الْمَعادِنُ صورَتَهُ
وَيُعيدُ لآنِيَةِ الْخَمْرِ أَوْقاتِها الْعَسَلِيَّةَ

وَهْوَ يَشِفُّ عَلى مَوْقدِ الْجَمْرِ مِثْلَ الزُّجَاجِ الْمُصَفّى

في الْحَضيضِ تَرِنُّ النِّصالُ على عَظْمِهِ

وَالسَّكاكينُ في لَحْمِهِ تُنْبُتُ الْعُشْبَ،

هَلْ كان عُشْبٌ على النَّهْرِ يَنْمو أَمِ الْوَرْدُ

عِنْدَ الظَّهيرَهْ!

لَيْس لي أَنْ أَقولَ لِغَيْرِ الرِّصاصِ الّذي

يَتَهاوى على مُهْجَتي:

أَنْتَ يا سَيِّدي أَعْظَمُ الْكائِنَاتِ

وَأَنْتَ الذي أَشْتَهي

مِلْءَ شِرْيانِها انْدَفَعَتْ في الضَّبابِ

الْمِزَاجِيِّ مُطْلِقَةً لِلرّنينِ أَعِنَّتَهُ،

وَلروحي التَّمَزُّقَ مِثْلَ الْوَرَقْ

وَعَلى رَأْسِ سِكِّينَةٍ رَفَعَتْنِي كَما رايَةٌ

تَحْتَرِقْ

أَشْعَلَتْنِي بِأَوَّلِ جُرْحٍ، وَأَوّلِ ما تَهَبُ امْرَأَةٌ

مِنْ نَزَقْ

أَشْعَلَتْنِيَ حتّى الرّمادْ

مِنْ وَراءِ زُجاجِ نَوافِذِها

والنَّوافِذُ مُشْرَعَةٌ لِبَرِيقِ القَلائِدِ والْعِنَبِ

الْمُتَساقِطِ مِنْ شَفَتَيْها

وَهذا الْقَلَقْ

بِهُدوءٍ يُفَجِّرُ أَمْطارَهُ،

ها هُو الْبَحْرُ، مِراثُنا، امْرَأَةٌ من حَريرِ

الصَّبا، وَأَميرٌ على الْماءِ، أَوْضَح من

صَمْتِهِ الْمَعْدَنِيِّ، يَهِلّ مِنَ الْبُعْدِ فارِسَ

ساحاتِهِ، سَيِّد الأَرْضِ، فَوْقَ الْجَمِيعِ، يَلُمُّ

شَتَاتَ الْفَراشِ الذي يَتَهاوى إِلى النَّارِ،

والنّار بَعْضُ مَعانيهِ، يُشْعِلُها في سَنابِكِ

سَيْلِ الْخُيولِ كَما يَنْبَغي، وَكَما يَنْبَغي

لِلأَصيلِ الأَصيلِ، يَلُمُّ شَتَاتَ الشَّوارِعِ،

ثُمَّ يَطيرُ إِلَيْها

وَيَلُمُّ الطُّيورَ الّتِي احْتَرَقَتْ في حَريقِ

الْحُقولْ

وَيَلُمُّ النَّدَى، وَفَتاتَ السَّحابِ، وَذِكْرى

مُشَرَّدَةً، وَدَماً سائِباً

وَيَلُمُّ شَتَاتَ الْوُعولْ

وَشَتَاتَ الشَّتاتِ، وَيَمْضِي بِها، حينَ

يَمْضي إِلى الْبَلَدِ الْمُسْتَحيلْ

يُطْلِقُ الْبَحْرُ ريحَ الْجِسارَةِ في دَوْخانِ

مَفاصِلِهِ

وَانْكِماشِ الْفَضاءْ

نابِتاً في الْمَراثي كَما تَنْبُتُ الْهُنْدُباءْ

تَسْتَقِرُّ الْقَوارِبُ فَوْقَ الْقَوارِبِ حتّى

يَضيقَ بِغُولِ الْمياهِ الْغَرَقْ

وَالْجَسورُ الْجَسورُ يَلوكُ هَزيمَتَهُ

وَيَبُثُّ عَناصِرَهُ في نَوافيرَ مِنْ شَرَرٍ..

وَهْوَ يَلْهو بِهذا الْقَوامِ الْجَميلِ وَهذا

الْحَلَقْ

مِثْلَما وَلَدَتْهُ سَماءُ البُرونْزِ صَباحَ حُزيرانَ

ثُمَّ مَشى نَحْوَ قَوْسِ الأُفُقْ

جُثَّةٌ مِنْ رَمادِ الْحَديدْ

جُثَّةٌ لَفَظَتْ جُثَّةَ الأَرْضِ خَيْطَ دُخانٍ تَمَدَّدَ

ثُمَّ انْحَنَى

كَالطَّعينِ على جُثَّةِ النَّهْرِ، والنَّهْرُ بَوّابَةُ

الشَّرْقِ، حَيْثُ

النَّهارُ طَويلٌ وَحَيْثُ جِدارُ السَّماءِ انْفَلَقْ

تَتَداعى إِلَيْهِ الدَّواعِي، وَكانَ فَريداً

وَعَناصِرُهُ مِثْلَ سِرْبِ ذُبابٍ يُخاتِلْنَ قَتْلى

الصَّباحْ

وَصَباحُ النُّواحِ بِكِبْرِيتِهِ يَخْتَنِقْ

في زَحامِ الْخُطى

جَبَلٌ خَلْفَهُ جَبَلْ

ثُمَّ عاصِمَةٌ مِنْ نَسيجِ الْحَديدْ

وَسِلاحٌ تَضيقُ بِهِ السُّبُلْ

في زَحامِ الْخُطى

وامْتِدادِ الطُّرُقْ

جُثَّتٌ فوقَها جُثَّتٌ

وَطُيورٌ تُكَسِّرُ جِنْحانَها ثُمَّ تَشْتَعِلُ

في الزِّحامِ الْكَثيفِ الكَثيفْ

مَطَرٌ مِنْ نُجومِ الْمَدى

وَالْمَدى في الدّروبِ الْكَثيفَةِ يَرْتَحِلُ

في الرّحامِ العَنيفْ ... الْوَرْدِ مِنْ تَحْتِهِ ... غابَةٌ لِطُيورِ الْمَساءْ

سَوْفَ أَلْهو صَباحاً مساءً، وَسَوفَ يَكونُ ... وَعَلى ظُلْمَةٍ من حَياءٍ عَميقٍ تُضيءُ دَمَ ... غابَةٌ لِجنُوني، أَنا أَوّل الشُّعَراءِ، أَبَحْتُ

الْمَدى بَيْتَ لَهْوي ... الشَّمْعَدانْ ... التَّلَهّي بما

هَلْ يَضيقُ الْجَرادُ بِما سَيَكونُ وَيَتَّسِعُ ... كانَتِ الأَرْضُ في أَوّلِ الخَلْقِ، والسَّرْخَسُ ... كَوَّرَ اللَّيْلُ من حَلَماتِ النِّساءْ

الضيِّقونَ لِما أَشْتَهي ... الْبَرْبَرِيُّ يُغَطّي انْحِداراتِها

كُلُّ ماءٍ يَجِفُّ، وَكُلُّ دَمٍ لا يَجِفُّ بِغَيْرِ دَمٍ، ... تَدْخُلُ الْكائِناتُ إِلى غابَةِ الضَّوْءِ، تَدْخُلُ ... هكَذا هَبَّ نَعْناعُها مِنْ جدائِلِهِ

والنِّساءُ ... سَيِّدَةُ الأَرْجُوَانْ

يَلِدْنَ الْجَرادْ ... وَأَنا أَوّلُ الدّاخِلِينَ، وَأَوّل خَلْقٍ تَرَجَّلُ عَنْ ... هكَذا غَمَرَتْني فُصولٌ وذابَتْ فُصولُ

يا لهذي الْجَرادَةِ ... فَرَسِ الْمَوْتِ كَيْ يُشْعِلَ الْمِهْرَجانْ

يا شَعْرَها الْمُتَناثِرَ فَوْقَ الْعُنُقْ ... بَيْنَ خَلْقٍ جَديدٍ وَبَيْنَ التَّلَهّي بِخاتمَةِ ... هكَذا رُحْتُ في عُنْفوانِ التَّلاشي أَصولُ

اسْتَدارَتْ إِليَّ، رَأَتْني عَلى خُطْوَتَيْنِ أَلَمْلِمُ ... الْمَوْتِ أَعْجِنُ طينَتَها جَسَدا ... سَرَقَتْني شِراكُ الثَّواني

ما يَتَساقَطُ مِنْ صَمْتِها ... ثُمَّ أُطْلِقُ كَوْكَبَةً مِنْ عَصافيرها ... سَرَقَتْني خُيوطُ الصَّباحْ

وَأُحاوِلُ أَنْ أُشْعِلَ الْماءَ في رُدُهاتِ ... في زِحامِ الْفَضاءِ، أَدُسُّ ارْتِعاشَ يَدَيَّ ... سَأَسوقُ ذِئابي إِلى وَكْرِها

الْمَكانْ ... كما النَّمْلُ تَحْتَ الرِّداءْ ... وَأَعودُ إِلى هذِهِ السَّيِّدَهْ

كُنْتُ أَرْسِمُ بَعْضَ الْكَلامِ كَما يَرْسُمُ ... ثُمَّ أَغْرَقُ مُرْتَبِكاً في بُخارٍ كَثيفٍ، وَأَشْرَبُ ... في نَهارٍ مِنَ العَسَلِ الْمُتَصابي، أُعِيدُ

الطِّفْلُ أَشْياءَهُ ... خَمْرَ الأَواني ... النُّجومَ الَّتي انْطَفَأَتْ

وَهْيَ تَرْسُمُ صَحْراءَ مَيِّتَةً ... وَعَلى آخِرِ السّاحِلِ الْمَرْمَرِيِّ تَسيلُ على ... وَهْيَ تَمْشي إِلى وَرْدِها الْمُخْمَلِيِّ ... في سَماءِ الْجَسَدْ

فَيَضيقُ الْجَرادُ بِجَنَّةِ الْبَحْرِ، والْبَحْرُ ... الرُّكْبَتَيْنِ الأَغاني ... وَأُطيلُ لِمَوْكِبِها الانْحِناءْ ... لِلسَّماءْ

يَغْرَقُ في سُحُبٍ مِنْ دُخانْ ... ها هُنا حَيَّةُ الشَّهَواتِ تَعُضُّ فَمَ الأُفْعوانِ ... وَهْيَ تَمْشي إِلَيْها

وَكَمَا يَلْعَقُ الذِّئْبُ مِنْ دَمِهِ ... غَيْرَ أَنّي تَحَنَّيْتُ بِالدَّمِ ثُمَّ ارْتَخَيْتُ ... لأَجُرَّ ذِئابي إِلَيْها

كان يَشْرَبُ مِنْ خَمْرِها وَيَجوحُ، وَقَدْ ضَجَّ ... وَعلى وَحْلِها الذَّهَبِيِّ ارْتَمَيْتُ، كما يَرْتَمي ... مَرَّةً، ثُمَّ أُخْرى، وَأُخْرى

نَبْعُ النَّبيذِ على شَفَتَيْها ... طائِرُ اللَّيْلِ حين يَعودُ لِغاباتِهِ ... وَأَظَلُّ سَعيداً بِأَنّي انْطَفَأْتُ عَلى وَحْلِها

وَضَجَّ على نَهْدِها الأُقْحُوانْ ... وَسَعيداً لأَنّي عَصَرْتُ الْغُيومَ عَلى حَقْلِها

ها هِيَ الآنَ تَرْفَعُ مِنْديلَها بِيَدَيْنِ مِنَ ... غابَةٌ لِلسّيولِ الْكَثيرَهْ ... وَسَعيداً بِها

الضَّوْءِ، تَفْتَحُ لي جَبْهَةَ ... غابَةٌ لِلرّمادِ النِّسائِيِّ والْقَمَرِ الْمُتَسِقْ ... كُلَّما مَنَحَتْني قَليلاً مِنَ الْوَرْدِ أَمْنَحُها ما تَشاءْ